سقراط وماكيافيلي

عبد السلام بنعبد العالي*

«في السياسة، قلما يكون الاختيار بين الخير والشر، إنه يكون بين أكبر المصائب وأهونها».

ن. ماكيافيلي

«الجميع يرى ما تظهر عليه، قلة من يدركون ما أنت عليه».

ن. ماكيافيلي

«ينبغي أن يعرف عنك أنك رجل صادق، وإلا فلن تكون موضع ثقة. وعلى أية حال فستضطر أن تكذب من حين لآخر، آنذاك سيكون بإمكانك أن تكذب بسهولة ومن موقع قوة».

ن. ماكيافيلي

أوضح جان بيير فرنان أنّ الإغريق لم يكونوا ليميّزوا في الإنسان بين ما يشكل «صميم وجوده»، وبين ما ليس إلا مظهراً خارجياً. كان الإغريقي يعيش في مجتمع ضيّق مغلق، يحيا فيه الناس «وجهاً لوجه». لا نعني بذلك أنّه مجتمع مواجهة وصراع، بل ربما العكس هو الصحيح. إنّه، ظاهرياً على الأقل، مجتمع تناغم وانسجام يعيش فيه المرء على مرأى من الجميع و«تحت أنظارهم»، فيتصرف وفق ما يرتضونه ويعمل حسب ما «يرونه». وعندما يسيء التصرّف، لم يكن ليشعر بـ«أزمة ضمير»، وإنما كان يحسّ بالحاجة إلى أن «يغرب بوجهه» عن الناس ويختفي عن أنظارهم. وربما لهذا السبب كانت الغربة والمنفى خارج المدينة يتخذان عند الإغريق دلالة كبرى، أخلاقية وسياسية، بل أنثولوجية. كان الإقصاء خارج المدينة نفياً لإنسانية الإنسان وعدم اعتراف بقيمته. كان إبعاده عن الأنظار إعداماً حقيقياً.

لا مكان لأخلاق الضمير في هذا السياق بطبيعة الحال. لذا فإنّ الفضيلة، كما تؤكد حنة آرندت، «لم تكن تقاس نسبة إلى خصلة فطرية، ولا على أساس النيّة التي تكون من وراء الفعل، ولا حتى بدلالة ما يترتب عن الأفعال من نتائج. إنها لم تكن تقاس إلا نسبة إلى الإنجاز، وإلى المظهر الذي يتخذه المرء عند العمل. لقد كانت الفضيلة vertu عند الإغريق تُعادل ما ندعوه اليوم مهارة virtuosité».

لا يخفى أنّ هذه المهارة تشترط الظهور في الفضاء العمومي. يجري على الفاعل الأخلاقي هنا ما يجري على العازف الموسيقي وعلى الراقص والممثل، كلّ هؤلاء ينبغي أن «يعطوا أنفسهم في مشهد»، وأن يظهروا أمام العموم كي يكون لأدائهم معنى، وكي تتخذ أعمالهم قيمة. فليس لما يقومون به من أفعال قيمة في ذاته، ولا دلالة تخصه. لا قيمة للأفعال إلا في أعين من «يرونها»، ولا معنى لها إلا داخل المدينة.

لم يكن الفرد إذاً لينفصل عند الإغريق عمّا حققه وأنجزه، ولا ليتميزعن ذريته وذويه. الإنسان هو ما قام به وهو ما يشدّه إلى الآخرين. لا يصحّ هنا حتى الحديث عن امتداد للذات في الموضوع، أو للباطن في الخارج. إذ لا مسافة تفصل «الذاتي» هنا عن الموضوعي، والباطني عن الخارجي، والأخلاقي عن السياسي، بل لا مسافة تفصل التفكير نفسه عن الحياة في المدينة.

---

*مفكر وأكاديمي من المغرب.

يتضح ذلك أشدّ ما يتضح في التجربة السقراطية للحوار. لقد تبيّن سقراط في تلك التجربة أنّ العلائق التي نقيمها مع أنفسنا هي من المستوى نفسه مع العلائق التي نقيمها مع الآخرين. فالحوار هو الرابطة التي تجعل من مجرد التجمع مدينة وبوليس Polis فترقى بالإنسان من الحيوانية إلى المدَنِية، وتجعل منه مواطناً داخل المدينة. «إذ أنّ العالم عند الإغريق، كما تؤكد آرندت، لا يصبح بشرياً إلا عندما يغدو موضع حوار وجدال عمومي». فمهما كان تأثير أشياء العالم عليهم، فإنها لا تغدو إنسانية بالنسبة إليهم ما لم تصبح موضع جدال عمومي فيما بينهم. ففي الحوار يثبت الشأن البشري أنّه شأن عمومي. أو قلْ بالحوار يوجد الشأن البشري، لأنّه لا وجود له إلا عمومياً. عندما أجعل حقيقة ما يظهر تتجلى في الحوار، فإنني، مثل الآخرين، أتمكن من إدراك ما تقتضيه أحوال الشأن البشري.

لم يكن الفرد لينفصل عند الإغريق عمّا حققه وأنجزه... الإنسان هو ما قام به وهو ما يشدّه إلى الآخرين. لا يصحّ هنا حتى الحديث عن امتداد للذات في الموضوع، أو للباطن في الخارج. إذ لا مسافة تفصل «الذاتي» هنا عن الموضوعي، والباطني عن الخارجي، والأخلاقي عن السياسي، بل لا مسافة تفصل التفكير نفسه عن الحياة في المدينة.

هذا هو المعنى الذي يقصده أرسطو عندما يؤكد أنّ الصداقة بين المواطنين هي أحد الشروط الأساسية لقيام الحياة الفاضلة داخل المدينة. فالحوار هو مجال تحقق الصداقة، مجال تحقق الفيليا. ذلك أنّ ماهية الصداقة عند الإغريق، كما بينت آرندت أيضاً، ماهية الفيليا عندهم، تتمثل في الخطاب. إنهم كانوا يعتقدون أنّ تبادل الكلام والحوار الدائم المتواتر هو الكفيل بأن يجمع المواطنين في المدينة ويوحّد بينهم. في الحوار تتجلى الأهمية السياسية للصداقة. فليس الحوار، كما نفهمه اليوم، هو المكاشفات الحميمة التي تتحدث فيها النفوس الفردية عن ذاتها وتكشف عن «دواخلها» وما يجول في خلدها. ليس الحوار هو ميدان الخصوصي، وإنما مجال العمومي، ذلك المجال الذي لا يتخذ بعداً إنسانياً ما لم يتجادل حوله الناس، و«يتبادلون أطراف الحديث». وما الوظيفة السياسية للفيلسوف في نظر سقراط إلا أن يساعد على تأسيس «هذا الشكل من العالم المشترك القائم على فهم الصداقة» كما تؤكد آرندت.

ما أبعدنا إذاً عن سيكلوجيا الحميميّة و«الدواخل» وأخلاق الضمير والنيات... وهكذا، فعندما يتشبث سقراط بأن يكون «منسجماً مع نفسه»، فليس ذلك إرضاء لضميره بقدر ما هو نقل للصداقة إلى علاقة مع الذات، فكأنّ سقراط يقول :«لن أكون صديقاً لغيري ما لم أكن صديق نفسي». لا مسافة إذاً بين ما يراه الآخرون منّي وما أراه أنا لنفسي. هذا ما يسمح لحنة آرندت أن توجز الدعوة السقراطية في هذه العبارة: «كنْ كما تتمنى أن تظهر للآخرين». ينبغي أن نفهم هذه الدعوة على هذا النحو: «أظهرْ لنفسك كما تتمنى أن تظهر للآخرين». لا مسافة إذاً بين «من يَرى» و «من يُرى»، ولا حياة للوغوس إلا داخل المدينة. وهكذا يمتزج مجال الشؤون البشرية بمجال الفكر، وتتحد حياة الفكر بحياة المواطن، فتختلط الأخلاق بالسياسة.

لكن، إلى أيّ حد يسمح «الواقع البشري» بهذا المزج بين السياسة والأخلاق؟ يكفينا أن نتذكر مآل سقراط داخل المدينة كي نستنتج ما يطرحه هذا المزج من صعوبات. فرغم هذا الارتباط للفكر بالحياة وداخل المدينة، ورغم السعي الجبار لربط الأخلاق بالسياسة، فإنّ سقراط يظل، في نهاية الأمر، بعيداً عن السياسة. هذا ما تجمله حنة آرندت في عبارة لا تخلو من حسم: «إنّ سقراط مفكر سياسي، إلا أنّه ليس رجل سياسة». وما لم نسلم بذلك، فإننا لا نستطيع أن نتفهم قولته: «من الأفضل ألا أكون على الرأي نفسه مع الجميع، بدل ألا أكون على وفاق مع نفسي». وهكذا يتقدم «الانسجام مع الذات» مجاراة الدوكسا، وتضحّي الأخلاق بالسياسة.

هذا بالضبط ما سيحاول ماكيافيلي أن يقوم ضده آخذاً بعين الاعتبار «الحقيقة الفعلية للأشياء»، منشغلاً بـ«واقع الأمور» عوض «الانسجام مع الذات». يدفعه إلى ذلك إحساسه بالحاجة إلى عمل سياسي يجد تحققه فيما يُنجز، ويأخذ بعين الاعتبار ما يشوب العلائق البشرية من تقلبات، وما يطبع التاريخ من لامعقول.

لا يريد ماكيافيلي، كما تقول آرندت، أن يقيم «فكراً سياسياً يتأسس على سياسة للفكر، وإنما عملاً سياسياً يجد تحققه داخل سياسة للمظاهر». لذا فهو لن يتبنى الدعوة السقراطية: «أظهر لنفسك كما تتمنى أن تظهر للآخرين»، وإنما سيكتفي بالقول: «اظهرْ كما تتمنى أن تكون». تُعَلق آرندت: «ليس المهم ما أنت عليه في نظر ماكيافيلي، فهذا أمر لا أهمية كبيرة له بالنسبة للسياسة حيث ما يهمّ هو المظاهر، وليس «الوجود الحق»، فإذا تمكنت من أن تظهر أمام الآخرين كما تتمنى أن تكون، فهذا كلّ ما يمكن لحكام العالم أن يطلبوه منك».

لا ترى آرندت في ما يدعو إليه ماكيافيلي ماكيافيلية ونفاقاً. ذلك أنّ المنافق ـ حسبها ـ لا يعمل بحيث يكون كما يريده الآخرون، وإنما هو يريد أن يقنع الآخرين أنّه هو بالضبط ما يظهر عليه، فيغرق بعد ذلك في التوهّم أنه هو بالفعل ما يظهر عليه. هذا «الماهو بالفعل» لا يعني ماكيافيلي في شيء. ما يهمّه هو «العمل السياسي الذي يجد تحققه داخل سياسة للمظاهر»، ومن أجل ذلك أن يتوفر الأمير على الحنكة virtù التي تعني عنده قوة الإدراك وسرعة الإنجاز. فالسياسة ليست انسجاماً مع الذات، وإنما هي حنكة وأداء، ومن أجل ذلك، «ينبغي للأفعال البشرية أن تكون مثل باقي الفنون والصنائع، ينبغي لها أن تلمع جدارةً واستحقاقاً». لا علاقة للحنكة virtù إذاً بالفضيلة vertu ، وإنما هي مهارة وفعاليّة virtuosité .